

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين-.

أما بعد:

فإن مصنف هذا الكتاب شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- بدأ بكتابه بمقدمة نافعة تحدّث فيها من خلال عرض الآيات والدلائل من الكتاب والسنة عن مكانة الذكر، ومنزلته عند الله -عزّ وجل- وعظيم ثوابه، وما يترتب عليه من الخيرات العظيمة والأفضال الكريمة في الدنيا والآخرة، وأخذ -رحمه الله- يسوق جملة من الأدلة بدأها بآيات من القرآن، ثم بجملة من الأحاديث عن الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-، وأول آية بدأ بها هي قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، ولعل في بدأ المصنف -رحمه الله- بهذه الآية قبل غيرها تنبيهاً منه -رحمه الله- على أهمية صيانة اللسان وحفظه، وأن أعظم شيء يُصان به اللسان هو ذكر الله -عزّ وجل-، فمن شغل لسانه بذكر الله -تبارك وتعالى- فإنه ياذن الله -عزّ وجل- يُحفظ لسانه من الخطأ والزلل والانحراف كما قال العلماء -رحمهم الله-، قالوا: اللسان حُلُق للكلّام حُلُق ليتكلم، فإذا تكلم به صاحبه بخيرٍ وحفظه على قول الخير فإنه يأمن ويسلم ياذن الله -عزّ وجل- من القول السيء والكلام السيء، ولهذا جاءت الوصية هنا، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: احفظوا ألسنتكم بالقول السديد والمحافظة على القول السديد، وعرفنا أن أعظم القول السديد شأنًا هو ذكر الله -تبارك وتعالى-، فما شُغلت الألسن ولا صُرِفَت الأوقات بخير من ذكر الله -تبارك وتعالى-، فهو خير ما تُشغل به الأوقات وخير ما تتحرك به الألسن وخير أمر ينال به المرء سعادته في دنياه وأخراه، فلعلّه لأجل هذا بدأ المصنف -رحمه الله- بهذه الآية الكريمة في كتابه المبارك القيم "الكلم الطيب"، بدأ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وكأنه ينبه بهذا إذا أردت أن يُكتب لسانك الحفظ والصيانة والسلامة من الزلل والخطأ فعليك بالإكثار من ذكر الله، وملازمة ذكر الله -تبارك وتعالى-، فإن في هذا حفظاً لسانك وصيانةً لمنطقك، بل وصيانةً لعملك كما عرفنا هذا من الآية نفسها قال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، الثمرة: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وفي هذا المعنى الحديث الذي قدمناه بالأمس وهو قول

النبي - عليه الصلاة والسلام - : «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّتْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا»، ثم أخذ المصنف - رحمه الله - بعد ذلك يُورد الآيات في بيان فضيلة الذكر ومكانته.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(الشرح)

قال: وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾، أي: إلى الله فإلى الله - تبارك وتعالى - يصعد الكلم الطيب، وهذا يدلنا على فضيلة الكلم الطيب ومكانته، ولاحظوا أن اسم هذا الكتاب "الكلم الطيب" وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من هذه الآية، الكلم الطيب، ما هو؟ ذكر الله - عز وجل - ودعائه بالأذكار والأدعية الماثورة الواردة في كتاب الله - تبارك وتعالى -، وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام -، ولهذا لما جمع المصنف - رحمه الله - هذا الكتاب الحاوي لجملة طيبة من الأذكار والدعوات المطلقة والراتبة جعل عنوان هذا الكتاب "الكلم الطيب"، منبهاً بذلك وبإيراد هذه الآية بمقدمة الكتاب أن الكلم الطيب هو ذكر الله ودعائه بما شرع، وبما جاء في كتابه وسنة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه -، وإن كان الكلم الطيب في نفسه متفاوتاً متفاضلاً، فلا إله إلا الله أفضل الكلمات على الإطلاق وأفضل الكلم الطيب، وليس في الكلم الطيب كلمة أفضل منها، فلا إله إلا الله هي خير الكلمات وأفضل الحسنات وأزكى الطاعات، كما قال - عليه الصلاة والسلام - عندما سأله أبو ذر قال: أفمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ»، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «خَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فلا إله إلا الله أفضل الكلم الطيب، وكذلك الكلمات الأربعة سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر قد ورد فيها أحاديث خاصة سيأتي بعضها عند المصنف - رحمه الله -، فهذا أفضل الكلم الطيب وأحبه إلى الله، وليس هو كل الكلم الطيب لكنه هو أفضله وأزكاه وأطيبه، ولأجل هذا كما ذكرت المصنف - رحمه الله - سمي كتابه "الكلم الطيب"، وهذا فيه لافتة أن الكلم الطيب ما هو؟ كل ذكرٍ ودعاءٍ مشروع جاء في القرآن وجاء في السنة هذا كله الكلم الطيب، وإن كان متفاوتاً في فضله بعضه أفضل من بعض، لكن كله داخل تحت قوله الكلم الطيب، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، وهذا فيه أنك كل ما اعتنيت بالكلم الطيب بأنواعه من تسبيح، وتخليل، وذكر الله - تبارك وتعالى -، ودعاء له - عز وجل -، ومناجاة، فكل ذلك يصعد إلى الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، إليه أي: إلى الله - سبحانه وتعالى -، ومن المعلوم معاشر الإخوة الكرام أن الصعود يكون إلى ماذا؟ إلى أعلى، إليه يصعد الكلم الطيب والصعود إلى أعلى، فهذا فيه دلالة على علو الله - تبارك وتعالى - وأنه - عز وجل - العلي العظيم، كما أخبر بذلك عن نفسه قال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، فهو - سبحانه وتعالى - العليُّ الأعلى المتعال، هذا وصفه - سبحانه وتعالى - له العلوُّ ذاتاً وقدرًا وقهراً، هو - سبحانه وتعالى - عليٌّ على خلقه بذاته - سبحانه وتعالى - مستوٍ على عرشه، كما أخبر عن نفسه بذلك في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فنحن نؤمن إيماناً جاماً لا ريب فيه أن ربنا - سبحانه وتعالى - عليٌّ على خلقه، ولهذا نقرأ هنا إليه يصعد الصعود إلى أعلى، وأيضاً نقرأ في آية أخرى، ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، أي: إلى الله - عز وجل -، وأيضاً نقرأ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، والنزول من أعلى؛ فالله - تبارك وتعالى -

له العلو ومن دلائل علوه هذه الآية الكريمة، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، يصعد إلى الله -تبارك وتعالى-، ولكن الكلم الطيب ورعاية العبد له وعنايته به يحتاج معه أيضاً أعمال صالحة تُزَكِّيهِ وترفعه وتعلّيه، ولا يكون منه قول بلا عمل بل لديه كلم طيب، قول نافع، ذكر حسن، دعاء مفيد، وفي الوقت نفسه عنده أيضاً أعمال صالحة وطاعات زاكية يتقرب بها إلى الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال في الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، والعمل الصالح يرفعه أي: يرفع الكلم الطيب، فلا بد منهما فلا يُكتفى بأحدهما دون الآخر، بل لا بد من الأقوال الزاكية التي هي ذكر الله -تبارك وتعالى- ودعائه والأعمال الصالحة المقربة إلى الله -عز وجل-، ولهذا الدين والإيمان قول وعمل، أقوال مباركة وأعمال صالحة يتقرب بها المسلم إلى الله -تبارك وتعالى-.

قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، أي: يرفع الكلم الطيب. وفي الآية تنبيهان مهمان؛ الأول يتعلّق بالكلم ألا وهو أن ليس كل كلم يُقبل، وإنما الذي يُقبل الكلم الطيب الموصوف بأنه طيب، ولا سبيل إلى معرفة الكلم أهو طيب أو ليس بطيب إلا من خلال الشارح الحكيم، ومن خلال التعويل والاعتماد على كلام الله وكلام رسوله -عليه الصلاة والسلام-، فليس كل ذكر لله يُقبل أيّاً كانت صفته وأيّاً كانت طريقته، وإنما الذي يُقبل من الذكر ما كان طيباً، والطيب من الذكر والطيب من الكلم إنما يُعلم من كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام-، وهذا فيه التنبيه على أهمية التعويل على الكتاب والسنة في الذكر والدعاء.

الأمر الآخر في قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾، فليس كل عمل يعملهُ الإنسان يُقبل حتى وإن كان خالصاً لله -تبارك وتعالى- لم يُبتغ به إلا وجه الله لا يقبل إلا إذا كان صالحاً، قال: والعمل الصالح، وصف العمل بالصلاح فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صالحاً، وصلاح العمل من عدم صلاحه إنما يُعرف من طريق الكتاب والسنة فليست كل الأعمال تُقبل، ولهذا جاء في الحديث في ما يتعلق بالنيات وأثرها في صلاح العمل، قال الله تعالى: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»، قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا» حتى وإن كان صالحاً فإن الله لا يقبله إن كان صاحبه جعل معه شريكاً، جعل لله فيه شريكاً، وفي الحديث يقول -عليه الصلاة والسلام-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، فلاحظ أهمية صلاح العمل من جهة ابتغاء وجه الله به كما يدل عليه الحديث الأول، ومن جهة اتباع السنة فيه كما يدل عليه الحديث الثاني، فلا يقبل العمل إلا إذا كان صالحاً، ولا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله موافقاً للسنة، فما لم يكن من الأعمال خالصاً وما لم يكن منها موافقاً لسنة النبي -عليه الصلاة والسلام- فإنه يرد على صاحبه، ولهذا قال الفضيل بن عياض -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

أيضاً لاحظ ملاحظة أخرى مهمة في الآية في قوله: ﴿يَصْعَدُ﴾، وقوله: ﴿يَرْفَعُهُ﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، في صعود في الأقوال وفي رفع لها من جهة الأعمال الصالحة المقربة إلى الله -تبارك وتعالى-، عندما تقرأ هذه الآية يجتمع فيك رجاء وخوف، رجاء عندما تكون من أهل المحافظة على الكلم الطيب والعمل الصالح، أن يكون ذلك منك صاعداً إلى الله، مرتفعاً إليه، متقبل عنده ترجو ذلك، وأيضاً يكون عندك خوف من جهة أخرى تخشى أن يكون منك أقوال وأعمال فلا تصعد إلى الله -سبحانه وتعالى- بل ترد على صاحبها فيخاف الإنسان من ذلك، ولهذا جاء في القرآن الكريم قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أُنْفُسِهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وجلة أي: خائفة، من ماذا؟ ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾، أي: يُقدمون ما يُقدمون من الأعمال الصالحة صلاة، صيام، صدقة، إلى غير ذلك وقلوبهم وجلة أي: خائفة ألا يقبل

منهم، كما بين ذلك الحديث حديث عائشة -رضي الله عنها- في مُسند الإمام أحمد قالت تسأله عن معنى الآية -صلوات الله وسلامه عليه- قالت: قلت يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعذب؟ هل هذا هو معنى الآية ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾؟ فهتت أي: يقدمون ما يقدمون من معاصي وهم خائفون من العقوبة، قالت: هل هذا هو المعنى؟ قال: «لا يا ابنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ»، فأتت إذا قرأت هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، يرفع الكلم الطيب ترجو وتسأل وتطمع أن تكون من هؤلاء الذين كلماتهم وأعمالهم إلى الله صاعدة ولديه -تبارك وتعالى- متقبلاً.

(المتن)

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي﴾ [البقرة: ١٥٢].

(الشرح)

وهذا أيضاً فيه فضيلة عظيمة جداً من فضائل الذكر وعظيم مكانته عند الله -سبحانه وتعالى-، فربُّ العالمين يقول مخاطباً عباده: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، وهذا فيه أمر منه -تبارك وتعالى- لعباده بذكره، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، ثم ذكر لثواب ذلك عند الله -تبارك وتعالى-، وما أعده الله -عزَّ وجل- للذاكرين من كريم النوال، وعظيم الثواب والمآل، قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وهذا على قاعدة تكثُر دلائلها في القرآن والسنة ألا وهي: أن الجزاء من جنس العمل، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فمن أحسن أحسن الله إليه وجزاه من جنس عمله، قال: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وجاء معنى هذا الحديث في السنة في قول النبي ﷺ: قال الله تعالى: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»، وهذا جزاء من جنس العمل، وأي ثواب وأي مكانة أعظم من أن يحظى عبد الله المؤمن بذكر الله -تبارك وتعالى- له، يذكره رب العالمين في الملائكة الكرام الأطهار البررة، وقد جاء في صحيح مسلم عن معاوية -رضي الله عنه- قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن حلقة جلوس في المسجد نتذاكر، فقال: «مَا أَجَلَسَكُمْ» ما الذي أجلسكم في المسجد؟ قلنا: جلسنا نذكر الله، وما من الله علينا به، يعني: من نعمة الإسلام ومن نعمة الهداية للدين، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «أَلَلَّهِ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟»، يستحلفهم بالله، ﴿أَلَلَّهِ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟﴾ قلنا: والله ما أجلسنا إلا ذلك، أي: ما جلسنا إلا لذكر الله ومداينة الإسلام وأمور الدين ومسائل الشرع، فقال -عليه الصلاة والسلام- «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ» يعني: لم أطلب منكم الحلف؛ لأنني أهتمكم على الكذب، ليس هذا السبب، إذا هو ما السبب؟ قال: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنْ أَتَانِي جِبْرِيلُ أَنِّي فَأَخْبِرُنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ»، هذا هو معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، إذا ذكرت الله -عزَّ وجل- في نفسك ذكرت الله في نفسه، وإذا ذكرته -سبحانه وتعالى- في مَالٍ ذَكَرَكَ في مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُ عند الملائكة الكرام الأطهار البررة، فهذا من ثواب الذكر، ومن عاجل بشرى الذاكر أن يحظى بهذه المنزلة العظيمة أن يذكره الله -تبارك وتعالى- في الملائكة الأعلى، الكرام الأطهار البررة ملائكة الله -عزَّ وجل-، أيضاً مثل هذا ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال -عليه الصلاة والسلام-: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَنَادَرُسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَقَّتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، فهذه فضيلة عظمى للذكر ينالها الذاكرون ألا وهي أن الله -سبحانه وتعالى- يذكرهم في الملائكة الأعلى، من ذكر الله في نفسه ذكره الله في نفسه، ومن ذكر الله في مَالٍ ذَكَرَهُ الله في مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُ.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

(الشرح)

ثم أورد -رحمه الله- هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [٤١] وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [٤٢] هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فهذه الآية فيها الأمر بذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، وانته لهذا قال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وهذه الآية نظائر في القرآن يأتي بعضها فيها أمرٌ لذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، ويأتي أيضًا في القرآن آيات فيها مدح، ﴿الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فهنا أمر زائد على مجرد الأمر بالذكر وهو الأمر بذكر الله بالكثرة، بأن تكون مكثرًا من ذكر الله، كثير الذكر لله -تبارك وتعالى-، كثير العناية بذكر الله -تبارك وتعالى-، لا يكون ذكرك لله قليلًا، والله -عز وجل- ذم المنافقين بماذا؟ ذم المنافقين بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، ذكرهم لله قليل، فالمسلم مطالب ومأمور في آيات كثيرة في القرآن بأن يذكر الله ذكراً كثيراً، أن يذكر الله بالكثرة، أن يكون مكثرًا من ذكر الله -تبارك وتعالى-.

وذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة يترتب عليه أجور عظيمة وأفضال كريمة، منها ما أشير إليه في هذه الآية التي أوردتها المصنف: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [٤١] وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [٤٢] هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ....﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه ثمرة من ثمار الإكثار من ذكر الله أن يصلي رب العالمين عليك، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ....﴾ وصلاته -تبارك وتعالى- على عبده المؤمن ذكره له في الملاء الأعلى على المعنى الذي تقدم معنا، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فصلاة الله على عبده ذكره له وثنائه عليه في الملاء الأعلى، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، ويترتب علي ذلك ما جاء في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فهذه كلها فضائل وثمار وآثار للإكثار من ذكر الله، صلاة الله على الذَّاكر إخراجهم من الظلمات إلى النور، أن يحظى برحمة الله الخاصة بعباده المؤمنين، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؛ فهذه كلها فضائل وثمار وآثار للإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى-، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فالشاهد أن هذه الآيات ونظائرها فيها أمر لذكر الله تبارك وتعالى بالكثرة، وهانها يأتي سؤال كبير ومهم للغاية ذكره العلماء في كتب الأذكار ومنهم النووي -رحمه الله- في كتابه "الأذكار"، وأيضًا ذكره المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾، ألا وهو متى يكون العبد من هؤلاء الذين وُصفوا بهذا الوصف، وتُعتوا بهذا النعت؟ كثرة الذكر لله -تبارك وتعالى- متى يكون من أهل هذا الوصف؟ وقد توارد كلام أهل العلم في الجواب على هذا السؤال؛ أن العبد يكون من الذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات إذا حصل منه مواظبة وعناية مستمرة في أيامه بالأذكار الموظفة الراتبة في صبيحة اليوم ومساءه، وعند النوم وعند القومة منه، وأدبار الصلوات، وعند دخول المنزل وعند الخروج، وعند الطعام وعند الشراب وعند الفراغ منه، وعند ركوب الدابة، إلى غير ذلك من الأذكار التي سترها في مثل هذا الكتاب وأمثاله التي تجمع عمل المسلم ووظيفته في يومه وليلته في باب ذكر الله -تبارك وتعالى-، وهناك أذكار المسلم يرغب في أن يحافظ عليها وأن يلازمها ملازمة تامة في أيامه ولياليه ليكون ذاكرًا لله في كل أحيائه، وهي أذكار راتبة أذكار موظفة للمسلم في يومه وليلته، ولهذا بعض العلماء سموها مؤلفاتهم التي حوت هذه الأذكار سموها عمل اليوم والليلة، أي: عمل المسلم في يومه وليلته التي يواظب عليه ليكتب وليكون من الذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات، فهناك وظائف راتبة يعتني بها المسلم ويلتزمها ويواظب عليها فيكون بذلك من الذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات، إضافةً إلى تحريك لسانه بالذكر المطلق الذي لا يختص بوقت ولا يختص بزمان ولا يختص بحال، وإنما ذكرٌ مطلق في كل أوقات المسلم وأحيائه يحاول أن يعود نفسه

ويدرب نفسه على المواظبة على الإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى-، وبهذا أجاب العلماء، وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- كلامًا هذا مؤداه: أن من واطب على أذكار الصباح وأذكار المساء، وأذكار أدبار الصلوات ونحو ذلك من الأذكار، كان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وجاء هذا المعنى عن عدد من أهل العلم في بيان متى يكون الإنسان من هؤلاء الذين هم أهل الذكر لله -تبارك وتعالى- بالكثرة، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، ثم ذكر الثمرة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (المتن)

وقال تعالى: ﴿وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

(الشرح)

قال: وقال تعالى: ﴿وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾، ثم ذكر ثوابهم قال: ﴿وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فهذا أيضًا في فضيلة الذكر لله -تبارك وتعالى- بالكثرة، وذكر الثواب لذلك ألا وهو غفران الذنوب ونيل الثواب العظيم، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، ﴿وَأَجْرًا﴾ نكرة وهذا لتفخيم الثواب وتعلية قدره، ثم وصف بالعظمة فلهم أجر عظيم عند الله -عز وجل- إضافة إلى غفران الذنوب مغفرة الذنوب، فلهم مغفرة الذنوب ولهم الثواب العظيم والأجر الجزيل من الله -تبارك وتعالى-، هذا ثواب من يذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، ومضى معنا قبل قليل متى يكون العبد من هؤلاء من أهل الذكر لله -تبارك وتعالى- بالكثرة.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

(الشرح)

هذا وصف لأولي الألباب، أولي العقول الراجحة الزكية الطيبة، كما قال الله -عز وجل- في أواخر آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١٩٠]، من هم ما حليتهم ما صفتهم؟ قال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٩١]، فأهل العقول الزاكية والقلوب الطيبة هذا شأنهم؛ أنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويعلمون بهذا التفكير الجميل أنها لم تخلق باطلاً ولم توجد عبثًا، وإنما خلقت وأوجدت لأمرٍ عظيم وخطبٍ جليل، ألا وهو أن يُعبد الله -تبارك وتعالى-، وأن يُخلص بالعبادة، وأن يُخلص بالذل والخشوع والركوع والسجود وأنواع العبادة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، يعني: أصحاب العقول الزاكية، ثم ذكر حليتهم -تبارك وتعالى- قال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، وهذا وصف لهم بأنهم ذاكرون الله -تبارك وتعالى- في كل أحوالهم، إذا كان الواحد منهم مضطجعًا يذكر الله، وإذا كان قاعدًا يذكر الله، وإذا كان قائمًا يذكر الله، وإذا كان ماشيًا يذكر الله، فهو في كل أحواله ذاكِر لله، فقلوه -سبحانه وتعالى-: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، هذا وصف لهؤلاء بأنهم ذاكرون الله -تبارك وتعالى- في كل أحوالهم، كما جاء وصف النبي -عليه الصلاة والسلام- في الحديث: أنه كان يذكر الله في كل أحيانه، قائمًا قاعدًا مضطجعًا على كل حال يذكر الله -تبارك وتعالى-، فالآية دليل على أن من صفة أولي الألباب ومن حليتهم ذكر الله تبارك وتعالى بالكثرة وفي كل حاله، مضطجعين يذكرون الله، وقاعدين يذكرون الله، وقائمين يذكرون الله، فهم في كل أحوالهم ذاكِر لله تبارك

وتعالى، هذا هو معنى الآية الذي لا معنى لها سواء، معناها: ذكر الله والإكثار من ذكره، في القيام والقعود والاضطجاع، في كل الأحوال يكون مكثراً من ذكر الله -تبارك وتعالى-، أما بعض الطريقة الضلال أصحاب الباطل، فقد حرفوا هذه الآية تحريفاً من أقبح ما يكون أشنع -والعياذ بالله-، قالوا ماذا في معنى هذه الآية، وهذا ذكروه في كتبهم ونصو عليه في كتبهم في تقرير معنى هذه الآية، قالوا: **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**، هذا دليل على الرقص وقت الذكر، بحيث أن الإنسان يذكر الله ويرقص، يعني: يقوم ويقعد ويرقص ويهتز يمين وشمال، قالوا: الدليل على ذلك **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾**، يعني يتمايلون ويقوم ويقعد ويميل على جنبه، مرة على الجنب الأيمن ومرة على الجنب الأيسر، ومرة يقفز من الأرض إلى الأعلى، هذا معنى قوله: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾**، قالوا: هذه صفة أولو الألباب. والحقيقة أن هذه صفة من؟ هل هذه صفة أولي الألباب العقلاء؟! هل العاقل من شأنه التمايل يميناً وشمالاً، ويقفز من أعلى إلى أسفل! أما من وصف من فقد اللب وفقد العقل! ليس هذه من صفة أهل الرزاة أو أهل الرجاجة أن يكون بهذا الشأن في كل أوقاته، فكيف في وقت ذكره لله! أيكون منه هذه الأعمال ففز إلى أعلى وتمايل يمين وشمال في وقت الذكر! هذا ليس من وصف العقلاء أبداً، ليس من وصف أولي الألباب مطلقاً أنهم يفعلون هذه الأعمال، أولو الألباب لا يفعلون هذه الأعمال في أوقاتهم كلها فضلاً عن أن تقع منهم وقت ذكرهم لله -سبحانه وتعالى-، هذا لا يفعله العقلاء أبداً، وليس من صفتهم، وذكر الله -تبارك وتعالى- فيه طمأنينة، فيه رزاة، فيه سكون فيه هدوء، **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الرعد: ٢٨]، لا ترتج ولا يفعلون أفعال السفهاء وأفعال الحمقاء وأفعال المجانين وأفعال الغوات، تمايل وقفز إلخ.. هذا كله من الضلال ومن السفه ومن الباطل، ومصيبة هؤلاء أنهم جعلوا -والعياذ بالله- الرقص مرتبطاً بالذكر، وجعلوه جزءاً منه، وأخذوا لهذا الفساد العريض الذي وقعوا فيه يستدلون عليه بالآيات ويؤولونها ويفسرونها على غير معناها كما صنعوا في هذه الآية الكريمة، ولما كان الرقص عند هؤلاء مرتبطاً بالذكر، قالوا: وللرقص آداب، ولهذا تجد في بعض الكتب يأتي كتاب الذكر ويسمونه كتاب السماع، ثم بعده يأتي باب الرقص، آداب الرقص أي: ما هي الآداب التي يتحلى بها الراقص في مجلس الرقص، ومما قرأته بنفسي في أحد الكتب التي ألفت لإحياء علوم الدين الإسلامي لهذا الشأن ألفت فيها باب بعنوان آداب الرقص، ما هي؟ بعد كتاب السمع مباشرة آداب الرقص، قال: من آداب الرقص أن المرید إذا حضر مجلس الرقص والشيخ أخذ يرقص في المجلس ويذكر الله، وسقطت عمامته من شدة رقصه وتمايله يميناً وشمالاً سقطت العمامة، ماذا يفعل التلميذ؟ قال: من أدب مجلس الرقص أن التلميذ يخلع عمامته، يقال: ما يصلح أن يكون الشيخ سقطت عمامته من شدة الرقص والحركة، والتلميذ جالس عمامته مصلحة على رأسه هذا خلاف الأدب.

قال: الأدب الثاني أنه في مجلس الرقص لو أن الشيخ من شدة الرقص والتفاعل مع موضوع الرقص شق قميصه وأصبح بدون ثوب في مجلس الرقص، ما هو الأدب الذي يكون عليه التلميذ؟ يجلس بثوبه والشيخ ما عليه ثوب؟ قال: هذا قلة أدب، هذا يخالف الأدب، الأدب أن تخلع ثوبك، إما أن تمزق مثل الشيخ أو على الأقل تخلع خلعاً. هذه آداب ذكرت في كتب ألفت لإحياء علوم الدين الإسلامي آداب للرقص في باب الأذكار، ثم يستدلون على الرقص الباطل هذا الذي يفعلونه في مجالس ذكرهم الباطل يستدلون عليه بمثل هذه الآية الكريمة، **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾**، الآية في وادٍ وهؤلاء في ضلالٍ في وادٍ آخر، وأقول يا إخوان: من عوفي فليحمد الله، هؤلاء يفعلون هذه الأمور ويظنون أنهم من أحسن الناس ذكراً لله، إي والله يفعلونها وهم يظنون في قرارة أنفسهم أنهم أحسن الناس ذكراً لله -تبارك وتعالى-، **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ﴾**

أَعْمَالًا [١٠٣] الَّذِينَ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [الكهف: ١٠٤]، ولهذا من عافاه الله فليحمد الله على العافية، فليحمد الله على السنة، فليحمد الله على الهداية للذكر الصحيح والدعاء الصحيح الموافق لهدي الرسول الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥].

(الشرح)

ثم أورد هذه الآية والآية تتعلق بملاقاة الأعداء ومقاتلة الكفار، وأن المسلم أيضًا مطالب في هذا الموقف أن يحافظ على ذكر الله -تبارك وتعالى-، وأن يُكثر من ذكر الله -تبارك وتعالى-، بل أيضًا أن يعتني بأذكاره المعتادة، أذكاره الراتبة التي كان يحافظ عليها ألا يغفل عنها بملاقاته الأعداء، بل يكون مُكثرًا لذكر الله -سبحانه وتعالى-، وسيأتي معنى حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في قصته مع زوجته لما أتوا النبي ﷺ يريدون خادمًا، وقال لها -عليه الصلاة والسلام-: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ لَّكَ مِنْ خَادِمٍ؟ تُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَا تَأْوِينَ إِلَى فِرَاشِكَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُحَمِّدِينَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ»، قال علي -رضي الله عنه-: فما تركتهن بعد سماعهم من رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فقال له رجل حاضر: ولا ليلة صفين؟ ليلة صفين ليلة قتال، قال: ولا ليلة صفين، فالشاهد أن المسلم الذي اعتنى بذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، المواقف الصعبة والأحوال الشديدة التي تجابه في الحياة الدنيا لا تشغل عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، إذا كان هؤلاء القتال لا يشغلهم عن ذكر الله فما بال أكثرنا! إذا حصل له مصيبة ربما يسيرة جدًّا من مصائب الدنيا تجد نفسه وقلبه منشغلة بما عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، تجد قلبه ونفسه منشغلة بما عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، فالشاهد أن هذه الآية فيها تنبيه عظيم أن المسلم ينبغي أن يعود نفسه على المواظبة على ذكر الله -تبارك وتعالى- في كل الأحوال وفي أحلك الظروف، وفي الشدائد وفي المصائب، وفي كل حال من أحواله يكون معتنيًا بذكر الله -تبارك وتعالى-.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

(الشرح)

وهذه الآية أيضًا فيها الأمر بذكر الله -تبارك وتعالى- عقب أداء هذه الفريضة العظيمة فريضة الحج، **﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾**، أي: مناسك الحج، **﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾**، وهذا فيه الأمر بذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، ولاحظ هنا هذا التنبيه العظيم على الإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى- عقب مناسك الحج، وأنتم تعلمون ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «أَنَّ مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، أي: نقيًا من الذنوب والآثام، فحال من كان هذا شأنه قد خرج من هذه الطاعة العظيمة التي من الله -تبارك وتعالى- عليه بها ويسرّها له أن يكون كثير الذكر لله لا أن يكون من الغافلين، ولهذا ليس من علامات الخير أن يغفل الإنسان عن ذكر الله ولا سيما عقب هذه الطاعة الكبيرة، ولهذا جاء الأمر هنا بذكر الله، **﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾**، وهذا فيه الأمر بالإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى- عقب هذه الطاعة، وأيضًا عقب الصيام، **﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**

[البقرة: ١٨٥]، ولهذا شُرِعَ لنا التكبير عندما ينتهي رمضان ويهل هلال شوال، يُشرع التكبير والإكثار من الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر والله الحمد، يُكثر الإنسان من هذا الذكر عقب هذه الطاعة العظيمة طاعة الصيام، وكذلك طاعة الحج يكثر الإنسان بعدها من ذكر الله، وطاعة الصلاة أيضاً يُكثر من التهليل، والتسبيح بعدها، والتحميد، والتكبير عقب كل صلاة مكتوبة، كما ثبت بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

(الشرح)

قال: وقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] هنا فيه نهي عن الغفلة عن ذكر الله -تبارك وتعالى- بأي أمر، لا بالأموال والتجارات والبيع والشراء وما إلى ذلك، ولا أيضاً في حال انشغال الإنسان بأولاده وبيته ومصالحه الخاصة، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، خصّ هذين الأمرين بالذكر لكونهما أكثر ما يشغل الإنسان، أكثر ما يشغل الإنسان المال والولد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فالمال فتنة والولد فتنة، وهو شاغل للإنسان إلا من حفظه الله -تبارك وتعالى- عن ذكر الله -عزّ وجل-، ولهذا جاء النهي عن ذلك قال: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، هذه الآية. وتأملوا معي يا إخوان في أي سورة وردت ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، في أي سورة وردت؟ في سورة المنافقون، والمنافقون وصفهم الله -عزّ وجل- في سورة أخرى بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، ولأجل ذلك قال العلماء في ذكر هذه الآية التي فيها نهي العبد عن الغفلة عن ذكر الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة التي حُصّت بأوصاف المنافقين وأعمال المنافقين والتحذير من النفاق في ذلك حكمة، قال بعض أهل العلم: ولعل الحكمة في ذلك؛ الإشارة إلى أن الإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى- أمان من النفاق، ولهذا علي بن أبي طالب لما سُئِلَ عن قوم قيل: أنما منافقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، فذكر الله بالكثرة من فوائده العظيمة أمان من النفاق لأن الله -عزّ وجل- وصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، أي: ذكرهم الله -تبارك وتعالى- قليل، فلعل الحكمة من ذكر هذه الآية التي فيها النهي عن الغفلة عن ذكر الله بالانشغال بالأموال أو الأولاد في سورة المنافقون أن في الإكثار من ذكر الله -تبارك وتعالى- أماناً من النفاق الذي من أوصاف أهله قلة ذكر الله -عزّ وجل-، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

(الشرح)

ثم أورد هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]، قبلها في بيوت، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [٣٦] رَجُلًا لَا تُلْهِهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

حقيقة هنا يا إخوان في قول رب العالمين في وصف أهل الذكر بهذه الصفة، ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾، في قوله: ﴿رَجُلًا﴾، فيه إشارة إلى حقيقة الرجولة المفتقدة عند أكثر الناس، حقيقة الرجولة أن يعمل الرجل بما خُلِقَ

له، هذه الرجولة وهذا الجسم وهذه الصحة وهذه العافية لماذا؟ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، فمن خرج عما خلق له وأوجد لتحقيقه خرج عن الرجولة، بعض الناس عندما يسأل عن حقيقة الرجولة يقول الرجولة قتل الشوارب، تجده يقتل شاربه ويخلق لحيته، والشارب يقتله ويرفعه إلى أعلى ويمشي ويظن أنه أكمل الناس رجولة، وأن ما في الرجولة أشد منه، وتجده مُضَيِّع دينه لا صلاة ولا عبادة ولا ذكر ويظن أنه هو الرجل، وبعضهم يظن أن الرجولة ظلم واعتداء والبطش وإيذاء الناس وأخذ حقوقه إلى آخره.. هذه الرجولة، وأن الرجل الذي يُحسن الاعتداء على الناس ويُحسن البطش ويُحسن الإساءة هذه الرجولة، وأما الذي خلق له وأوجد لتحقيقه ما يحسنه وما يعرفه ولا يدري ما هو الرجولة، هنا ﴿رَجَالٌ﴾ من هم؟ ما صفتهم؟ قال: ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾، هؤلاء هم الرجال، من الذي وصفهم بهذه الصفات؟ الذي خلقهم -تعالى- وأوجدهم رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ولهذا سبحانه الله يا إخوان عندما يغفل الإنسان عن حقيقة ما خلق له وأوجد لتحقيقه يذهب ذهنه مذاهب بعيدة، تراه مسكين يريد أن يحقق الرجولة ولكن في توافه الأمور وخسيس الأشياء، يريد أن يحقق في نفسه الرجولة ويثبت لنفسه الرجولة فيمارس توافه الأمور وخسيس الأشياء وحقيرتها وديء الأمور، وهو بينه وبين نفسه يظن أن هذه المراحل وأن هذه أفعال الرجال، لماذا؟ لأنه ضيِّع ما خلق له فأصبح تائهاً ضالاً يمشي أعمى في حياته لا يُبصر حقائق الأمور، فالذي يريد أن يعرف الرجولة بأكمل صورها وأبهى خللها وأجمل مظاهرها تجدها في هذه الآية، ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، هذه حقيقة الرجولة، فالشاهد أن الآية فيها بيان لفضيلة الذكر ومكانته، وأن أهل الإيمان أهل الطاعة أهل المراحل حقاً وصدقاً هم المعتنون بذكر الله -تبارك وتعالى- الذين لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل، ولا يلهيهم عنه مله، لا بيع ولا تجارة ولا ولد ولا غير ذلك.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

(الشرح)

ثم ذكر المصنف أو ختم الآيات بهذه الآية الكريمة التي فيها أمر بالذكر ونهي عن ضده، جمع الله -عز وجل- في هذه الآية بين أمرين، أولها: الأمر بذكر الله، وآخرها: النهي عن ضده وهو الغفلة، في أولها بالذكر وختمها بالنهي عن ضده الغفلة، قال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾، وفي أثناء ذلك ذكر جملة من الآداب آداب ذكر الله -تبارك وتعالى-، قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، أي: ذكرك لله -تبارك وتعالى- بينك وبين الله -سبحانه وتعالى-، تذكر الله -عز وجل- في نفسك، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾، والتضرع هو الإلحاح والمداومة والإكثار والاستمرار على العناية بذكر الله -تبارك وتعالى- ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، والخيفة هي الخوف من الله -سبحانه وتعالى-، أي: تذكر الله وأنت خائف، ذكرك الله -تبارك وتعالى- إحسان، فتجمع مع إحسانك في ذكرك لله الخوف، خوفاً أن يُرد عليك عملك مثل ما مر قريباً، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: خائفاً، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، أي: خائفاً، خائفاً أن تُرد عليك أعمالك، وترد عليك أذكارك، وترد عليك طاعاتك، ولهذا قال الحسن البصري -رحمه الله-، قال كلمة جميلة جداً قال: المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين مساءة وأمن، المنافق مسيء أعماله سيئة ولكنه ءامن من عذاب الله ليس مبالي ولا مكترث ولا خائف من عذاب الله، والمؤمن جمع بين إحسان ومخافة، إحسان عبادة وذكر وطاعة وملازمة لعبادة الله وهو خائف، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾،

إحسان وخوف، والمنافق إساءة وأمن، تجد أعماله سيئة وطاعاته قليلة جدًا ومعاصيه كثيرة، وفي الوقت نفسه آمن من مكر الله وآمن من عذاب الله وليس مبالي ولا مكترث ولا مهتم، وليس هذا شأن المؤمن، قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وهذا يدلُّنا على أن الذكر لا بد فيه من تحريك اللسان به لا يكون في نفسك أن يكون بدون حركة اللسان، بل تُحرك لسانك بذكر الله ولكن دون الجهر من القول، أي: لا ترفع صوتك به وإنما يكون مخافتةً، هذا معنى قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، يعني: في الصباح والمساء، وهذا فيه تنبيه على أذكار الصباح والمساء، وسيأتي كلام عنها وأدلة عليها عند المصنف - رحمه الله - تعالى.

قال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾، أي: بتركك لذكر الله - تبارك وتعالى -، فإن الإنسان إذا ترك الذكر أصبح من أهل الغفلة، والله - عز وجل - أمرنا بالذكر ونهانا عن ضده وهو الغفلة.

ثم بعد ذلك انتقل المصنف إلى فصلٍ جديدٍ أورد فيه الأحاديث من السنة النبوية على ذكر الله - تبارك وتعالى -، فنكتفي بهذا القدر سائلين الله - تبارك وتعالى - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من الذاكرين الشاكرين، وأن يوفقنا لطاعته في هذا الشهر الكريم وفي كل وقت وحين، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير والموت راحةً لنا من كل شر، ونسأله - تبارك وتعالى - أن يغفر لنا ذنوبنا كلّ ودقّه، أوله وآخره، سره وعلنه، وأن يجعلنا من عتقائه من النار في هذا الشهر العظيم والموسم الكريم، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله تعالى أعلم.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.